

منخفض القطارة

في صحراء مصر الغربية

للأستاذ ستابلتون تروول

—•••••

كان قدماء المصريين يظنون أن منخفض القطارة هو الدار الآخرة . وكان قدماء الإغريق يحدوه الوطن الخرافي للفرعون الوحشي : ميدوس (Medusa) الذي كانوا يعتقدون أنه إذا نظر إلى شيء حوله حجرا . ولا شك أن السبب في نشأة هذا الزعم هو ما كان يروى من القصص المجيبة عن الغابات والنباتات المتحجرة التي تغطي مساحة المنخفض . ولقد عبر منخفض القطارة جيش بقيادة قبيل بن قورش الأكبر ، حينما زحف إلى مملكة سيوة لفتحتها . ويحدثنا هيرودوت أن ذلك الجيش وقع فريسة لمعاصرة رملية اجتاحتهم فلم يسمع عنه خبر . ولقد اجتاز الاسكندر الأكبر كذلك ذلك الطريق في عودته من سيوة بعد أن نادى به قساوسة المعبود السيوي إلهما . تلك هي طبيعة منخفض القطارة ، حتى إنها ظلت مئات السنين تقذف الرعب الخفي في القلوب ، فكان الرحالون والقوافل تتجنبها دائما . ومع أن المنخفض قد كشف في أواخر القرن الثامن عشر وارتاده الرحالة الألماني رولف (Ruhls) سنة ١٧٨٤ ، لم تنجبه إليه الأنظار أبجها قويا إلا في فجر القرن التاسع عشر

على أن حديثنا هنا هو عن جماعة الكولونيل باكنولد (Bagnold) الذين اجتازوا المنخفض بالسيارات في سنة ١٩٢٧ وقد دون باكنولد ما جاء على غير ما كان يتوقع جمهور الناس ، إذ قال إنه لم يصادف في رحلته حوادث مشيرة أو خطيرة ، فلم يغفلوا الطريق ، ولم تمطل سياراتهم ، ولم تهاجمهم قبائل معادية . وقد قامت الفرقة برحلتها النهرية من غير حوادث ولا مصادفات ولكنها عادت بوصف واضح لتكوين المنخفض . ويقول باكنولد إنه حتى في أثناء الحرب العظمى الماضية لم تحاول عبور المنخفض دوريات السيارات الخفيفة التي كانت تقوم بعملها في مصر لحراسة حدودها . ولقد بدأ رحلته من ميناء ، باب الصحراء الغربية ، واختط طريقه مجتوبيا حافة المنخفض عابرا إلى غارزة ،

ومنها قدما إلى سيوة — فبلغ ما قطعه في رحلته ٤٠٠ ميل . ولا شك في أن الرحلة لم تكن زهرة يتفكك بها ، إذ أن المنخفض ليس أرضا صلبة ، لذلك كانت عجلات السيارات تنوص في التربة الرملية اللحية .

وكانوا في بعض الأحيان يقابلون قطعانا من الغزلان ترى الحشائش المتناثرة التي تنمو بقطرات الندى ، والتي يحيط بها من كل ناحية سهول ممتدة من الرمل الأسفر ، تتلانى بالتدرج في خط الأفق .

ويتألف المنخفض من سلسلة من الأحواض الضحلة تحتضنها حروف واطئة ملتوية من الحصاء السمراء المحترقة بأشعة الشمس . وتقطع الأوكات على مقربة من منخفض القطارة بحار تشبه الجداول الصغيرة ، غير أن الماء لم يعرف سبيله قط إليها . ومن المشاهد المجيبة في المنطقة الجنوبية للمنخفض انتظام الأوكات الرملية التي تنفصل كل منها عن الأخرى بما يقرب من مائة ياردة (أى نحو تسعين مترا) ، في صورة مجموعة متصلة من السلاسل الرملية . وتجد متناثرا هنا وهناك على الأوكات الرملية جذوع أشجار الغابات المتحجرة بما فيها من عقد وفروع ، وبعض تلك الجذوع غائر بحيث لا يبدو منها فوق الأرض الناعمة التربة إلا أعلاها بشكل يشبه غلاب عملاق تمتد في الفضاء . وفي أثناء عبور الفرقة للمنخفض عثروا على موطئ أقدام لا بد أن يكون قد مضى عليها سنوات عدة ، ولكنها مع ذلك لم تكدر تؤثر فيها العوامل الجوية . وهناك يلف صمت الصحراء الرهيب كل شيء ، كأنه ملاءة شامسة ، ذلك الصمت الذي يستحوذ على مشاعر الانسان ، فان لم يسيطر العزم المادق على أعماله حينئذ ، تغلب ذلك الصمت عليه فناقه في أي اتجاه طلبا للنجاة مما استولى عليه من السأم ، محاولا البحث عن سلوى يلجأ إليها في ذلك العمق الرهيب لسكون المفازة الشامسة ، وما يزال كذلك حتى يغفل الطريق فلا يعرف أمشرك هو أم مغرب . عندئذ تاحقه الخيبة والهزيمة فيقع في سبات — فان لم تسارع إليه النجدة كان الهلاك مصيره . تلك هي الأراضي التي اجتازها باكنولد ورققاؤه .

وتدل الكتابات الجغرافية عن المنخفض على أن مصلحة المساحة المصرية قامت بتخطيطه على خرائط دائرية منذ سنة

به على أنه لم يكن هناك ولا شك اتصال مباشر بين البحر والمنخفض في وقت من الأوقات ، بل إن الماء الذي يوجد بالعيون القليلة التي يتر فيها الماء على مقربة من الجانب الشمال عما سبه نواصل نشع الماء من تحت الأرض الى سطحها ، ذلك الماء الذي ينبع من بحود اندى (Eenedi) في أقصى الجنوب الغربي لمنطقة خط الإستواء بأفريقية ، ويسرى في جوف صحراء ليبيا ، فيمد الآبار الأرضوازية في الواحات الخارجة ، والداخلية ، وواحة الفارقة والبحرية ، وسيوة . ويبلغ متوسط المطر الذي يسقط على منخفض القطارة نحو ٢٠ ملللمترا في السنة . ويتكون الجرف الشمالى للمنخفض من هضبة واحدة ممتدة بغير انقطاع ، ويبلغ ارتفاعه نحو ٢٥٠ مترا ، أما سفح تلك الهضبة فيبدو كما لو أن نهراً عظيماً كان قد أخذ مجراد على امتداد حافته ثم جف ماؤه فلم يخلف سوى حوضه المحتفر . وفي هذا الحوض — الذي يمتد على أعماق مختلفة ، حتى داخل حدود ليبيا — نجد العيون المائية القليلة في تلك المنطقة . أما العيون التي تستمد مياهها من الأمطار فلا وجود لها هنا .

ورحلة با كنولد ورقائنه كانت عبر الحدود الجنوبية لتلك الغازاة السبخة ، الصامته ، الرهيبة ، الحالية من الماء ؛ وكانت جبابهم لاتحمل أمتعتهم لحشب ، بل حملوا معهم كذلك كل قطرة من ماء الشرب العزيز الذي كان مقدراً لهم ، لكل منهم قدر معلوم لا يتجاوز في كل يوم . وبلغ الركب آخر الأمر واحة سيوة ، حيث يبدأ بحر الرمال الذي لاساحل له ، وحيث تتلاشي على الخرائط المعالم الأرضية ، وتعمل على الخطوط التي تحددها النقط التي ترمز للرمال تتلوها الرمال ، وحيث يقرأ المرء على الخريطة تلك الإشارة النامضة : « حدود الأكتات الرملية غير معروفة » .

ولقد عبر با كنولد ذلك البحر الرملى التاسع بعد عبوره منخفض القطارة بسنتين ، وعاد كذلك بمعلومات قيمة .

ومن العجب أن بعض الرحلات الاستكشافية قد تبدو أبان القيام بها عديمة الأهمية ، ثم تحمل من التاريخ المستقبل محلاً رفيعاً وتسيطر على بعض حوادثه سيطرة بليغة ، وبخاصة حين يكون مصير الشعوب في ميزان القدر : فلقد وجد الجيش البريطانى الثامن في منخفض القطارة ميسرة منيعة له حيناً تفهقر من ليبيا واتخذ له

١٩٢٧ ، وبذلك أصبحت مساحته معروفة على سبيل الدقة . وتكتنفه الأجرف الرملية من جانبيه الشمالى والغربى ، على حين أنه في جانبيه الجنوبى والشرقى منتوح منبسط بحيث إن قاعه في معظم هاتين الجهتين يأخذ في الارتفاع تدريجياً حتى يوازى المستوى العام للصحراء الحقيقية ويتلاشى فيه . وهذا التدرج في الارتفاع من قاع المنخفض الى سطح الصحراء يجعل من الصعب تخطيط حد فاصل بين نهاية المنخفض وبداية الصحراء . على أننا اذا اعتبرنا المنخفض شاملاً لبقعة الأرض الفسيحة التي ينخفض سطحها عن سطح البحر ، كان طوله من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ٢٩٨ كيلو مترا ، مع عرض يبلغ أقصاه ١٤٥ كيلو مترا ، فتكون مساحته ١٩٥٠٠ كيلو متر مربع . ويدخل في حدوده واحة المغارة على جانبه الشرقى ، وواحة قارة — وهى واحة أهلة بالسكان على الدوام — على جانبه الغربى . ويقع الجزء الضيق للمنخفض ، أى الجزء الشرقى الذى به واحة المغارة ، على بعد ٢٠٥ كيلو مترات من القاهرة ، على حين أنه على مسافة لاتزيد على ٥٦ كيلو مترا من البحر المتوسط ؛ أما طرفه الغربى ، بالقرب من واحة قارة ، فانه يمتد الى نقطة تبعد ٨٠ كيلو مترا عن القرية الرئيسية لواحة سيوة ، كما تبعد ١٣٠ كيلو مترا عن حدود مصر الغربية . ويبلغ متوسط عمق المنخفض ٦٠ مترا تحت سطح البحر ، وأعمق نقطة فيه — وهى على مسافة ٣٠ كيلو مترا الى الجنوب الشرقى من قارة — يصل غورها الى ١٣٤ مترا تحت سطح البحر . وبما يسترعى النظر أن من ٥٠٠ الى ١٩٠ كيلو متر المربعة التي تؤلف مجموع مساحة المنخفض جزءاً لا يقل عن ١٣٥٠٠ كيلو متر مربع سطحها تحت مستوى سطح البحر بأكثر من ٥٠ مترا .

وتتغطى مساحة كبيرة من قاع المنخفض بترية سبخة — وهى خليط من الملح والرمل — فيها على وجه العموم قليل من الماء ، وفي بعض البقاع تلبسط السبخة فوق أرض صلبة لا يمكن اجتيازها الا بمشقة ؛ غير أنه في جزء كبير من قاع المنخفض تتحول السبخة الى قشرة صلبة أو رخوة تغطى وحلاً متشبها بالأملاح — وهذا الجزء يستحيل اجتيازها . وتوسع الأكتات الرملية التي أشرنا إليها من قبل في أقصى الأجزاء الجنوبية للمنخفض ، وهى نتيجة لهبوب الرياح ، ويدل البحث الدقيق في مساحة المنخفض والمنطقة المحيطة

وبناء على تقدير الدكتور بول يمكن الحصول من محطة الكهرباء على ٢٠٠.٠٠٠ كيلوواط صافية ، وان هذه القوة الكهربائية تزود المناطق الساحلية على الشواطئ المصرية برفاهية لاشك في تقديرها ، كما أنها تحول مئات الأميال في مناطق البرارى والصحارى الى مدن ومجتمعات تنبض بالحياة ؛ فان هذه القوة الكهربائية هي التي تجلب معها حيث تدير الصناعة والتجارة والعمل لآلاف الناس .

ومن البديهي أن الأمل في انقاذ ذلك المشروع يتوقف على الحاجة المستقبلية الى القوة الكهربائية ؛ غير أن أهم جزء في نفقات أى مشروع لاستغلال ذلك الخفض المهم هو الأعمال الانشائية اللازمة لحفر الأنوية لمرور المياه من البحر المتوسط الى النخس . على أن العمل لا يتقطع بمجرد انشاء هذه الأنوية ، فالحاجة الى أعمال الصيانة لمخازن الكهرباء وما إليها تظل أبدا قائمة ، كما تظل الحاجة الى العمل في الملاحات .

وأمر آخر ، وهو أن تحويل المنخفض الى بحيرة يسبب زيادة صغيرة في سقوط الأمطار على السهل الشمالى ، كما يجبرنا بذلك الخبراء في حسابهم الدقيق . ومن الواضح أن هذه النتيجة تكون من أعظم الأمور نفعا للزراعة في المناطق الساحلية ، كما أنها ترفع مستوى الماء في الواحات المختلفة .

ألا إن شبان الأمم جميعا يتطلعون الى المستقبل : وسيكون أمام مصر ، بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها ، فرص لا تعد للقيام بأعمال اصلاحية تؤدي بها خدمات لنفسها ولغيرها . وتمتثل بذلك نخبها بين شعوب العالم الرئيسية ، متمتعة بثمار أعمالها ؛ تلك هي الفرص التي تتيح لأهلها من العلماء ، ومهندسى المساحة ، والأطباء ، ورجال الصناعة ، ومهرة الفنانين ، والطلاب ، أن يتقدموا الى الأمام — كل يؤدي نصيبه في جمل العلم والصناعة مورداً عذبا ينهل منه جمهور الشعب . ومنخفض القطار في مصر ، على حد قول الدكتور بول في مشروعه المقترح ، لا يزيد على أن يكون أحد الأعمال الانشائية اللازمة بعد الحرب ، وهو عمل ينبغي أن ينال تفكيراً جدياً من جميع المهندسين المصريين سواء أكانوا من رجال الكهرباء أم من رجال التعدين ، لكي تصبح ثمرة معارفهم ومهاراتهم نفعا عميماً لأبناء جلدتهم .

حافظ تروبول

خطا دفاعيا جديداً. يعتمد من الملمين ، على ساحل البحر المتوسط الى تحرف منخفض القطار — وهي مسافة تبلغ نحو ٧٥ ميلا . ولقد وقف ذلك الحاجز النيع عقبه كأداء في وجه روميل وفرقه المدرعة التي كان يعتمد عليها كل الاعتماد . ثم أصبح ذلك الحاجز المركز الذي وثب منه الهجوم البريطاني حينما تجمع في ذلك الخط ، ذى الخمة والسبعين ميلا ، كل ما كان للجيش الثامن من عند وعدة . ثم صب على « الجيش الأفريقى » الألمانى بتلك الصورة المهلكة ، حتى انه في مدى ٣٨ يوما تفرق شذر مذر مرتدا الى طرابلس ، متقهقراً مسافة تزيد على ١٧٠٠ ميل — وهو أعظم تقهقر عرفه التاريخ الحربى . وفي أثناء تقدم الجيش البريطانى تحت لواء النصر فى أراضي ليبيا ، ألقى كذلك ميسرة طبيعية أخرى ، تلك كانت بحر الرمال التاسع الذى يلتقى بالصعوبات فى سبيل وسائل النقل المعبدة « الميكانيكية » . وبذلك كان الجيش على الدوام خلو من كابوس العدو اذا عن له أن يصد الهجوم بهجوم على الجناح أو المؤخرة ، مما كان يفسد جميع الخطط الدقيقة التى وضعاها القائد مونتغمرى . أفلا يصح أن نقول ان منخفض القطار كان اليد المساعدة التى مدتها الطبيعة الى مصر ، لانقاذها من العصابات النازية المقيمة ؟

ترى ، هل يظل منخفض القطار ذا أهمية لمصر فى مستقبلها ، أم هل يبقى مقارعة تتحدى جهود البشر ؟ ألا ان هناك مشروعا نافعا تقدم به الدكتور جون بول (John Ball) فى تقرير له . فقد اقترح فى سنة ١٩٢٧ ، وأعاد اقتراحه مرة ثانية فى سنة ١٩٣٣ ، بأن من الممكن استخدام منخفض القطار لتوليد الكهرباء بالقوى المائية . وقد بحث الموضوع بمنتهى الدقة ، وغرض شئ من التفصيل لطرق تنفيذه . واذا نفذ مثل هذا المشروع فان آلافا من العمال يستخدمون فى بناء الأنوية من البصر المتوسط الى تحرف المنخفض ، كما تستخدم المهارة والكفاية الفنية التى تدخرها مصر فى رجال المساحة والمهندسة من أبنائها . ذلك الى أنه اذا أمكن الشور على بقعة من الأرض مصمتة لا يتخللها المياه لتكون حوضا للملاحات ، كان من السهل انشاء منجم للملح بمساعدة محطة التوليد الكهربائى ، وبذلك يتيسر انتاج سلعة شمن زهيد ، وهي الملح الذى لا يستغنى عنه بيت فى البلاد الشرقية .